2025 كانون الاول   19A1العدد
No.19A1   Dec 2025
المجلة العراقية للبحوث الانسانية والاجتماعية والعلمية
Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952   Electronic ISSN2790-1254

النظر العقلي وأثره في تحقيق معرفة الله تعالى

م. د. وعد الله عزيز معروف
ديوان الوقف السني/ قسم أوقاف الاسحاقي

Rational Contemplation and Its Impact on Achieving the Knowledge of Allah

Assist. Prof. Waad Allah Aziz Ma'ruf
Sunni Endowment Diwan / Al-Ishaqi Endowment Department

الملخّص

يتناول هذا البحثُ مفهومَ النظر العقلي بوصفه فعلاً معرفياً قصديّاً ينتظم فيه الفكر ترتيباً واستدلالاً، فيثمر انتقالاً من التوهّم إلى الإيمان المؤسَّس على البصيرة. ويؤكد البحث أن الوحي دعا إلى إعمال العقل في آيات الله تعالى وآثاره، وربط بين سلامة النظر وسلامة القصد، وبين صحة الدليل واستقامة العمل، بحيث لا يكون النظر صناعةً جدليةً معزولة عن الهداية. كما يبيّن البحث أن النظر إذا انضبط بضوابطه المنهجية عند العلماء والمتكلمين والأصوليين تحوّل إلى طريقٍ عمليٍّ لترشيد الإيمان ودفع الشبهات، وأن ثماره ليست ذهنيةً فحسب، بل سلوكيةٌ وجدانيةٌ تنتج السكينة والخشية. ويخلص البحث إلى أن تحقيق معرفة الله تعالى لا يتم بإلغاء العقل ولا بإطلاقه بلا قيد، بل بتكامله مع الوحي، وببناء يقينٍ صحيح عن الله تعالى يورث الخشية والاستقامة.

ويعتمد البحث منهجاً تحليلياً استقرائيّاً: تحليل النصوص المؤسسة لمشروعية النظر وضوابطه، ثم استقراء تقعيدات الأئمة في علم الكلام وأصول الفقه والتفسير والتزكية، وصولاً إلى بيان أثر النظر في ترشيد الإيمان وتحقيق معرفة الله تعالى. وتتمحور معالجته حول تحرير المفهوم، وتقويم المناهج، وبيان ثمرات النظر في بناء اليقين ودفع الشبهات، مع الالتزام بتوثيق كل فقرة من مصادر رصينة، وتجنب التكرار المتتابع للمصادر، وإيراد نص الآيات في المتن عند الاستشهاد.

الكلمات المفتاحية: النظر العقلي، معرفة الله تعالى، اليقين، البرهان، العقل والوحي، الشبهات.

Abstract

This paper clarifies rational contemplation (al-naẓar al-ʿaqlī) as a deliberate epistemic act that orders premises to yield knowledge, and it argues that revelation consistently calls human beings to reflect upon the signs of God in the horizons and within themselves. It further shows that sound reasoning in Islamic scholarship is never detached from ethical intent, spiritual refinement, and practical guidance. Drawing on major works in tafsīr, kalām, uṣūl al-fiqh, and spiritual discipline, the study explains how scholars regulated naẓar by methodological constraints—distinguishing certainty from conjecture, explicit from ambiguous, and valid inference from fallacious argumentation. The paper concludes that

knowing God is neither achieved by dismissing reason nor by granting it absolute autonomy, but through integrating reason with revelation, and by guiding it ethically so that reasoning becomes a path to revealed certainty and upright conduct rather than mere disputation.

Methodologically, the study combines analytical reading of foundational guidance for reflection with an inductive survey of classical formulations of naẓar and its constraints, then examines the practical effects of rational inquiry in strengthening certainty, dispelling doubts, and cultivating tranquillity. The argument is grounded in authoritative sources, with precise referencing and with Qurʾānic citations presented in full within the body of the text.

Keywords: Rational inquiry, knowledge of God, certainty, proof, reason and revelation, doubts.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، حمداً يليق بجلاله وكماله، والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه. أمّا بعد؛ فإن قضية معرفة الله تعالى هي لبّ الرسالة ومقصد التكليف، إذ لا تستقيم عبادةٌ بلا معرفة، ولا تثبت معرفةٌ بلا بصيرة، ولا تستوي بصيرةٌ بلا نظرٍ صحيحٍ يضع الأشياء مواضعها ويهتدي إلى دلالاتها. وقد تميّز الوحي الإسلامي بأنّه لم يلغِ العقل، بل خاطبه وأقام له مسالك الاعتبار، وقرّر أن الإنسان مسؤولٌ عن قصده وفهمه واستدلاله، وأن الانحراف قد يكون فساداً في الدليل أو فساداً في القصد أو كليهما.

تنبع مشكلة البحث من سؤالٍ مركزي: ما حقيقة النظر العقلي في الإسلام، وما ضوابطه، وكيف يسهم في تحقيق معرفة الله تعالى على وجهٍ يورث اليقين ويمنع الحيرة؟ وتتفرع عنه أسئلةٌ تتعلق بمشروعية النظر وحدوده، وبكيفية بناء البرهان وفق مسالك العلماء، وبأثر النظر في دفع الشبهات وتحقيق السكينة. وتزداد أهمية هذه الأسئلة في زمنٍ تتكاثر فيه الخطابات التي تفصل بين العقل والوحي، أو ترفع العقل إلى مستوى الاستقلال المطلق، أو تُضعفه حتى يصير الإيمان تقليداً هشاً قابلاً للاضطراب عند أول شبهة.

ويهدف البحث إلى: تحرير مفهوم النظر العقلي وبيان علاقته بالتعقل والتفكر والاعتبار؛ إبراز أدلة مشروعيته من القرآن والسنة مع بيان أثرها المنهجي؛ تحليل تقعيدات الأئمة لمعناه وشرائطه وضوابطه؛ بيان أثره في بناء اليقين وترشيد الإيمان ودفع الشبهات؛ وبيان صورة التكامل بين العقل والوحي بوصفها الطريق الأقوم لتحقيق معرفة الله تعالى. ويعتمد البحث منهجاً تحليلياً استقرائياً، مع توثيق الفقرات في نهايتها، وتجنب تكرار المصدر نفسه في فقرتين متتاليتين.

وتتحدد خطة البحث في مبحثين: يتناول الأول حقيقة النظر العقلي ومشروعيته وضوابطه، ويتناول الثاني أثر النظر في تحقيق معرفة الله تعالى وترشيد الإيمان، وفي كل مبحث مدخل ومطلبان على النحو المحدد في منهج البحث.

المبحث الأول

حقيقة النظر العقلي ومشروعيته وضوابطه

النظر في الاصطلاح العلمي هو انتقال العقل من مقدماتٍ إلى نتائج وفق ترتيبٍ يقتضي الدلالة، وهو

أوسع من مجرد التفكر العابر، لأنه فعلٌ قصديٌّ منضبط بمقدمات وشرائط. وقد ميّز العلماء بين العلم الضروري والعلم النظري، فجعلوا النظر طريقاً لاكتساب النظري، واعتبروا سلامته مرتبطة بصحة التصور وصحة الاستدلال وسلامة القصد. وتظهر أهمية هذا المدخل في بيان أن مشروعية النظر ليست شعاراً عاماً، بل هي بناءٌ معرفيٌّ أخلاقيٌّ يرشد العقل إلى طريق الهداية ويمنع الفوضى المنهجية[١].

كما أن النصوص الشرعية تضع للنظر إطاراً: فهو مأمورٌ به من جهة الاعتبار والاستدلال، ومنهيٌّ عنه من جهة التخرص واتباع الظن بغير علم، ومحدودٌ بحدودٍ تمنع الإنسان من التقول على الله تعالى بغير برهان. وهذا يعني أن الوحي لا يرفض النظر، بل يرفض صورته الفاسدة حين تنفصل عن العلم والعدل والتواضع[٢].

ولذلك فإن تحرير مفهوم النظر في هذا المبحث هو تمهيدٌ لفهم العلاقة بين العقل والوحي، وكيف يتكاملان في بناء معرفة الله تعالى، وكيف تتحول المعرفة من مجرد تصديق إلى يقينٍ مؤثرٍ في السلوك والوجدان.

المطلب الأول: دلالات القرآن والسنة في تأسيس مشروعيّة النظر

يؤسس القرآن لمشروعية النظر عبر تحويل الاعتقاد إلى مسارٍ معرفي، فلا يقدّم التوحيد بوصفه شعاراً، بل بوصفه نتيجةً لمعرفةٍ تتولد من ملاحظة الآيات الكونية والإنسانية. ومن أبرز الآيات الجامعة في ذلك قوله تعالى: **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾**[٣]، فخاتمة الآية تقرن الدلالة بالعقل، وتقرر أن الانتفاع بالآيات مشروطٌ بعملٍ عقليٍّ منضبط، وهذا هو معنى النظر الذي يفضي إلى المعرفة.

نبّه الطبري إلى أن تعداد الآيات في هذا الموضع يراد به الاستدلال على الربوبية والوحدانية، وأن الختام لقوم يعقلون يدل على أن هذه الآيات لا ينتفع بها إلا من استعمل عقله على وجه الاعتبار، لا على وجه السرد المجرد، لأن العبرة ليست في كثرة المشاهدات، بل في انتقال القلب والعقل من الظاهر إلى الباطن ومن الأثر إلى المؤثر[٤].

ومن أبرز النصوص الجامعة بين الذكر والفكر قوله تعالى: **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾**[٥]، فالآية لا تكتفي بأمر التفكر، بل تصف أهل التفكر بأنهم أهل ذكر، وتبين أن التفكر الحق ينتهي إلى تنزيه الله تعالى ودعائه، وهذا يضبط النظر ويمنعه من التحول إلى تجربة عقلية باردة لا أثر لها.

يقرر ابن كثير أن هذه الآيات تجمع بين عبودية الذكر وعبودية الفكر، وأنها من أعظم ما يوقظ القلب من الغفلة. ويؤخذ من تقريره أن القرآن لا يريد من النظر مجرد إدراك معلومات، بل يريد يقظة القلب

---

(١) ينظر: الإحكام في أصول الأحكام، ١/٩٤.

(٢) ينظر: المصدر نفسه، ١/٩٥

(٣) سورة البقرة: ١٦٤.

(٤) ينظر: جامع البيان، ٣/٩٠

(٥) سورة آل عمران: ١٩٠-١٩١.

العدد 19A1 كانون الاول 2025
No.19A1 Dec 2025
المجلة العراقية للبحوث الانسانية والاجتماعية والعلمية
Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952 Electronic ISSN2790-1254

وحضور المعنى، لأن العقل إن لم يصحبه عمل صار علماً بلا ثمرة[٦]. ومن مسالك القرآن في تأسيس النظر أنه يحاكم الإنسان إلى بداهات العقل بأسئلةٍ تقطع الطريق على البدائل المتوهمة. قال تعالى: ﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ**﴾[٧]، فالاستفهام هنا ليس طلباً للخبر، بل إلزامٌ عقليٌّ يقوم على نفي اجتماع النقيضين: فإما أن يكون الخلق بلا خالق، وهو باطل، وإما أن يكونوا خالقين لأنفسهم، وهو باطل، فيثبت لزوماً وجود الخالق. ويُفصّل الرازي وجوه الحجة في هذا الموضع، ويبين أن القرآن لا يحتاج إلى اصطلاحاتٍ فلسفية ليقرر الضروريات العقلية، وأن صياغته الاستفهامية تحاصر الوهم وتكشف تناقضه. وهذا يوضح أن النظر في القرآن ليس ترفاً ذهنياً، بل ضرورةٌ يقينيةٌ تستدعي من العقل أن يسلّم بما تقتضيه البديهة[٨].

يضع القرآن ضابطاً معرفياً يمنع اتباع الظن بلا علم، وهو أصلٌ في أخلاق النظر. قال تعالى: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا**﴾[٩]، فالآية تجعل الإنسان مسؤولاً عن أدوات المعرفة، وتنهى عن متابعة ما لا علم به، وهذا يضع معياراً لمشروعية النظر: أن يكون قائماً على علمٍ صحيحٍ أو على طريقٍ صحيحٍ لتحصيل العلم، لا على التخرص. ويرى الغزالي أن كثيراً من الاضطراب العقدي يرجع إلى خلط الظنون باليقينيات، وأن علاج ذلك يكون بإصلاح منهج النظر والتمييز بين مراتب الأدلة، لأن من سوّى بين القطعي والظني عاش في اضطراب دائم، وهذا يلتقي مع توجيه القرآن في النهي عن اتباع ما ليس به علم[١٠].

يربط القرآن بين ضعف النظر وضعف القلب، ويقرر أن المشكلة قد تكون في القابلية الداخلية لا في الدليل الخارجي. قال تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾[١١]، فالآية تصرّح بأن العمى الحقيقي هو عمى القلب، أي فساد القصد والقبول، وهذا يبين أن النظر يحتاج إلى قلبٍ حيٍّ حتى ينتفع بالدليل. وتظهر السنة أثر النظر في تحويل المعرفة إلى سلوكٍ مستقيم؛ ففي صحيح مسلم أن سفيان بن عبد الله قال:(**قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك، قال: قل آمنت بالله ثم استقم**). فالدلالة هنا أن الإيمان ليس مجرد دعوى، بل قولٌ ينبني على معرفة بالله تعالى، ثم يعقبه عمل الاستقامة، ويمنع أن يبقى النظر في حدود اللفظ[١٢]. وتؤكد السنة ضبط النظر عند ورود الوسوسة؛ ففي صحيح مسلم أن النبي ﷺ ذكر وسوسة الشيطان فقال: (**يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته**). فالتوجيه النبوي يفرّق بين السؤال العلمي الذي يقصد الوصول إلى الحق، وبين الاسترسال الذي يفسد اليقين، وهذا يضع ضابطاً مهماً في منهج النظر: قطع الاسترسال عند تحوله إلى عبثٍ لا ثمرة له[١٣].

وخلاصة المطلب أن النصوص الشرعية تبني مشروعية النظر على أصلين: دعوة العقل إلى

---

(٦) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ١٩٠/٢.
(٧) سورة الطور: ٣٥-٣٦.
(٨) ينظر: مفاتيح الغيب، ٢٣/٢٩.
(٩) سورة الإسراء: ٣٦.
(١٠) ينظر: الاقتصاد في الاعتقاد، ٥٠/١.
(١١) سورة الحج: ٤٦.
(١٢) ينظر: صحيح مسلم، ٦٥/١.
(١٣) ينظر: المصدر نفسه، ١١٩/١.

الاعتبار والاستدلال من جهة، ومنع التخرص واتباع الظن من جهة أخرى، وربط النظر بالذكر والعمل والقصد. وبذلك يتحقق معنى النظر الشرعي الذي يقود إلى معرفة الله تعالى على بصيرة. ولإتمام بناء الدلالة في آية البقرة يُذكر نصها كاملاً: **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾**[١٤]، وفي الآية ترتيبٌ للمشاهد الكونية من الأعلى إلى الأدنى، ومن العام إلى الخاص، ثم ختمٌ بالعقل، ليؤسس قاعدة أن المعرفة الحقّة تقوم على ربط الآيات بعللها ومآلاتها عبر تعقلٍ صحيحٍ يحفظ مقصد الهداية. ويؤكد ابن كثير عند تفسير آيات الآفاق أن المقصود ليس مجرد تعداد الآيات، بل التنبيه على توحيد الله تعالى وقدرته، وأن كثيراً من الناس يرون الآيات ولا يهتدون بسبب غفلتهم أو فساد قصدهم، ولا تغنيه المشاهدة عن الاعتبار[١٥].

من أدب القرآن في بناء النظر أنه يجمع بين عرض الدليل والتنبيه إلى زمان ظهوره تدريجياً، قال تعالى: **﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾**[١٦]، فالوعد بإراءة الآيات يدل على أن المعرفة تتشكل عبر تراكم الدلالات والاعتبار المتكرر، وأن الحق يتبين تدريجياً لمن استقام على النظر، وهذا يقرر أصلاً تربوياً في النظر: الصبر المنهجي ويمنع استعجال النتائج بلا مقدمات. ويشرح الرازي أن دلالة الآفاق والأنفس تتكامل: فالآفاق تقدم نظاماً كلياً، والأنفس تقدم دلالة القرب والحضور، وأن تبيّن الحق هنا ليس بمجرد البرهنة النظرية، بل بتآزر الأدلة وتكررها حتى تصير اليقينيات مستقرةً في النفس. وهذا يوضح أن القرآن لا يحصر النظر في مسلكٍ واحد، بل ينوّع مسالكه رحمةً بالناس وتفاوت عقولهم[١٧].

يلاحظ أن الآيات التي تدعو إلى النظر لا تفصل بين المعرفة والعمل، بل تجعل الاعتبار سبيلاً للاتعاظ. فمقصود الاستدلال ليس إنتاج فكرة مجردة، وإنما إنتاج عبودية واعية. وقد أشار الطبري إلى أن الأمر بالنظر يستلزم الانتهاء إلى الاعتبار، لأن من لم ينتقل من رؤية الآية إلى ما تدل عليه بقي كمن رأى ولم يفهم. ومن هنا كان تعليم النظر تعليماً لمهارة الانتقال من المشهد إلى المعنى، ومن النعمة إلى الشكر، ومن الدليل إلى الطاعة[١٨]. ويزيد القرآن هذا المعنى وضوحاً حين يأمر بالسير في الأرض للاعتبار لا للسياحة المجردة، قال تعالى: **﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**[١٩]، فالآية تجعل النظر في بدء الخلق مدخلاً لتصديق الإعادة، وبذلك تُربّي العقل على الانتقال من المشاهدة إلى الاستنتاج، ومن الدنيا إلى الآخرة.

المطلب الثاني: تقعيد النظر عند المتكلمين والأصوليين وضوابطه المنهجية

يبتدئ التقعيد العلمي للنظر من تحرير تعريفه وحدّه، لأن كثيراً من الخلافات في مشروعية النظر وحدوده تنشأ من اختلاف المقصود بالنظر نفسه: هل هو مجرد التفكر، أم هو ترتيب مقدماتٍ مخصوصة

---

(١٤) سورة البقرة: ١٦٤.

(١٥) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ٢٩٩/١.

(١٦) سورة فصلت: ٥٣.

(١٧) ينظر: مفاتيح الغيب، ١١٤/٢٧.

(١٨) ينظر: جامع البيان، ٤٠٨/١.

(١٩) سورة العنكبوت: ٢٠.

على هيئةٍ مخصوصة تنتج علماً؟ وقد اصطلح جمهور المتكلمين على أن النظر فعلٌ قصديٌّ يطلب به العلم، وأنه ترتيبٌ للمعلومات على وجهٍ يفضي إلى المجهول، فلا يُسمى نظراً إلا إذا استجمع قصد الطالب، وصححت مقدماته، وانتظمت وفق دلالةٍ معتبرة، مع إمكان إفادته لنتيجةٍ صحيحة لو سلمت مقدماته وصحّ الانتقال منها[٢٠].

من المسائل المؤسسة في تقعيد النظر عند المتكلمين مسألة أول الواجبات، إذ جعلها كثير منهم مدخلاً لبيان أن المعرفة بالله تعالى لا تكون تقليداً محضاً، بل تحتاج إلى نظرٍ يحقق أصل الإيمان ويحصنه من التزلزل. وقد قرر الجويني أن المقصود من إلزام النظر ليس تحميل الناس صناعة الجدل، وإنما حملهم على أصلٍ يثبت به الاعتقاد، ويقطع مادة الاضطراب عند ورود الشبهة، لأن الإيمان إن لم يكن له أصل من فهمٍ واعتبارٍ قد تزعزعه الشكوك عند أول احتكاكٍ فكري[٢١].

يرتبط بهذا تقرير المتكلمين لمفهوم العلم وضبطه، إذ إن سلامة النظر لا تتحقق إلا إذا ضبطنا معنى العلم الذي نطلبه من النظر: أهو معرفةٌ مطابقةٌ للواقع مع قيام الدليل، أم هو مجرد ظنٍّ راجح؟ وقد اعتنى الباقلاني بتمييز العلم عن الظن والشك، وقرر أن العلم معرفة المعلوم على ما هو به، وأنه يختلف عن التقليد الذي قد يصادف الحق بلا برهان، لأن المطلوب في التوحيد رسوخٌ لا يتغير بتغير المؤثرات، وهذا لا يتحقق إلا بمعيارٍ يفرز صحيح النظر من فاسده[٢٢].

يُستكمل التقعيد بتمييز مراتب المعرفة: ضروري يحصل بلا نظر، ونظري لا يحصل إلا بالنظر، لأن هذا التمييز هو الذي يفسر اختلاف الناس في قوة اليقين: فمن عرف الضروريات استقر عندها، ومن عجز عن تحصيل النظريات بقي عرضة للتأثر بالشبهات. ومن هنا قرر ابن تيمية أن العلم لا يثبت بمجرد الدعوى، بل لا بد من أسبابٍ صحيحة يحصل بها، وأن فساد الطريق يورث فساد النتيجة، وأن تصحيح العلم يمر عبر تصحيح القصد والدليل معاً[٢٣].

من الضوابط الكبرى التي جعلها العلماء أساساً في هذا الباب قاعدة امتناع التعارض بين العقل الصريح والنقل الصحيح، لأن التعارض إن وقع فإنما يقع بين نقلٍ غير ثابت أو فهمٍ غير صحيح أو عقلٍ غير صريح. وهذه القاعدة ليست شعاراً للتوفيق الخطابي، بل هي ميزانٌ منهجي يجعل الباحث يفتش عن موضع الخلل: في الثبوت، أو في الدلالة، أو في مقدمات العقل، ويعيد ترتيب الأدلة حتى تستقيم، لأن الحق واحد لا يتناقض. وبذلك يصبح التقعيد باباً للتكامل بين العقل والوحي، لا تقديم أحد الأصلين بإطلاق[٢٤].

يقرر الغزالي ضابطاً قريباً من هذا حين يبين أن للعقل مجالاً يعمل فيه فيدرك أصولاً عامة، وأن للنقل مجالاً يبين تفاصيل الغيب والشرائع، وأن العقل إذا استقل بما لا مجال له فيه أفسد، كما أن النقل إذا فُهم بغير آلةٍ عقلية صحيحة أفسد، فالمطلوب هو عقلٌ خادمٌ للهدى لا عقلٌ متسلط على الوحي، وهذا ليس إلغاءً للعقل، بل ترشيداً له بإقرار حدوده[٢٥].

من جهة صناعة الدلالة أسس الأصوليون منهجاً يضمن سلامة النظر في الاستنباط والاستدلال، فقرروا مراتب الأدلة وطرق الاستدلال وقواعد الترجيح، حتى لا يبقى العقل نهباً للهوى أو لاضطراب

---

(٢٠) ينظر: شرح المقاصد، ٢/١٠٠.

(٢١) ينظر: الإرشاد، ١/١٥٥.

(٢٢) ينظر: تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، ١/٦.

(٢٣) ينظر: مجموع الفتاوى، ٤/٣٩.

(٢٤) ينظر: درء تعارض العقل والنقل، ١/٣.

(٢٥) ينظر: الاقتصاد في الاعتقاد، ١/٥٠.

القياس. ومن أصول ذلك التفريق بين القطعي والظني، وبين الدلالة الصريحة والدلالة المحتملة، وبين العام والخاص والمطلق والمقيد، لأن الخطأ في درجة الدلالة يورث خطأ في الحكم، ويجعل الباحث يبني يقيناً على ظن أو ينقض يقيناً بشبهةٍ محتملة، وهذا من أعظم أبواب فساد النظر[٢٦].

ويضيف علم المقاصد بُعداً توجيهياً للنظر؛ فالعقل قد يحسن ترتيب المقدمات لكنه قد يضل إذا فقد مقصد الحق، ولذلك يقرر الشاطبي أن فهم الشريعة لا ينفك عن إدراك كلياتها ومقاصدها، وأن الجزئيات إذا قُطعت عن كلياتها أنتجت تعارضاً موهوماً، وأن إصلاح النظر يكون برد الجزئيات إلى الكليات، وبربط المعرفة بوظائفها في تزكية النفس وإقامة العدل، لا بمجرد الانتصار في المناظرة (الموافقات، ٢٣/١)

من تمام ضبط النظر تحرير الألفاظ والمصطلحات قبل بناء الأحكام عليها، لأن كثيراً من النزاعات في باب التوحيد تنشأ من ألفاظٍ مجملة تحمل حقاً وباطلاً، فإذا لم تُحرر دلالاتها صار الخصم يلزمك بلازمٍ لم تقل به، أو تنفي معنى حقاً لاقترانه بلفظٍ موهم. وقد نبه أهل التعريفات على أن الحدّ يرفع الاشتراك ويمنع الغلط، وأن ضبط المفاهيم هو أول أبواب التحقيق العلمي، خصوصاً في المسائل العقدية التي يكثر فيها الإجمال[٢٧].

من القواعد المحكمة في هذا الباب قاعدة رد المتشابه إلى المحكم، لأن من فساد النظر تتبع الملتبس وإهمال البين. وقد تقدمت الإشارة إلى أصل هذه القاعدة في قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾[٢٨]، فالتقعيد القرآني يربط الرسوخ العلمي بالمنهج: تقديم المحكمات، وترك تتبع المتشابه طلباً للفتنة. ولأن النظر قد يتحول إلى جدلٍ يفسد القلب، اعتنى علماء السلوك بتقعيد آدابه، وأبرزوا أن فساد القصد يفسد الاستدلال ولو كان صاحبه ذكياً. وقد قرر الغزالي أن آفات المناظرة كطلب الغلبة والرياء تقلب العلم وبالاً، وأن الطريق إلى علمٍ نافع يبدأ بتزكية القصد، لأن القلب إن لم يرد الحق لم ينتفع بالدليل، ومن هنا كان التقعيد الأخلاقي جزءاً من التقعيد العلمي[٢٩].

ويكتمل هذا التقعيد حين ندرك أن طلب العلم ليس منعزلاً عن التدرج والتخصص، وأن من الناس من يكفيه من النظر ما يدفع عنه الشبهة ويثبت أصل الإيمان، وأن الدخول في دقائق الجدل دون أهلية قد يفتح على النفس أبواباً من الحيرة. ولهذا يقرر الأصوليون قاعدة سؤال أهل الذكر عند الجهل، قال تعالى: ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾[٣٠]، فالآية تُقعد مبدأً معرفياً: لا تجعل جهلَك صناعة رأي، ولا تجعل ضعفك المنهجي طريقاً إلى القول على الله بغير علم، بل ارجع إلى أهل الاختصاص. ومن لوازم هذا الضابط في واقع البحث الأكاديمي أن الباحث لا يخلط بين مقام التأصيل ومقام التلقي، وأن التلقي المعتبر ليس تقليداً مذموماً إذا كان عن أهل العلم وبمنهج التحقق، لأن التقعيد المنهجي يقصد في النهاية حفظ الدين والعقل معاً. وقد بسط الجويني معنى التدرج وأنه لا يُخاطب كل أحدٍ بما يُخاطَب به

---

(٢٦) ينظر: الإحكام في أصول الأحكام، ٩٤/١.

(٢٧) ينظر: التعريفات، ١٥/١.

(٢٨) سورة آل عمران: ٧

(٢٩) ينظر: إحياء علوم الدين، ٢٤/١.

(٣٠) سورة النحل: ٤٣.

المتخصص، وأن التكليف بما لا يطاق يورث فتنةً لا هداية[٣١].

ومعيار سلامة النظر يظهر أيضاً في ثمرة العلم: هل أورث صاحبه خشيةً وعملاً أم أورثه قسوةً ومراءً. وقد قرر ابن رجب أن العلم النافع ما وقر في القلب وصدّقه العمل، وأن كثرة الجدل مع قلة العمل علامة خلل في المقصد، فبهذا الميزان تنضبط حركة النظر وتُرد إلى مقصدها في تحقيق معرفة الله تعالى معرفةً مُصلحة لا معرفةً مُفسدة[٣٢]. ومن ثمّ يتبين أن تقعيد النظر عند المتكلمين والأصوليين ليس مجرد قواعد صورية، بل هو بناءٌ معرفي أخلاقي: تعريفٌ وحدّ، وتحريرٌ للمفاهيم، وتمييزٌ لمراتب الأدلة، وردٌّ للمتشابه إلى المحكم، وتخصيصٌ لمجالات العقل والنقل، وتربيةٌ للقصد، حتى يصير النظر طريقاً آمناً إلى معرفة الله تعالى لا سبباً للاضطراب[٣٣].

المبحث الثاني

أثر النظر العقلي في تحقيق معرفة الله تعالى وترشيد الإيمان

إذا ثبتت مشروعية النظر وضُبطت قواعده، بقي السؤال عن أثره: ماذا يصنع النظر العقلي في قلب المؤمن وعقله؟ وهل يثمر يقيناً وسكينة، أم يفتح أبواباً من الحيرة؟ والجواب يتوقف على تمييز النظر الصحيح من النظر الفاسد، وعلى ربط النظر بمقاصده الشرعية. فالقرآن لا يريد من الإنسان مجرد الإدراك الذهني، بل يريد إدراكاً يورث تقوى واستقامة، ولذلك تتكرر في النصوص حركة الانتقال من الدليل إلى العمل، ومن الاعتبار إلى الاتعاظ، ومن المعرفة إلى الشكر والخشية[٣٤]. ويُفهم من هذا أن أثر النظر ليس أثراً واحداً، بل هو آثار متعددة: بناء اليقين بالله تعالى، وترشيد الإيمان من التقليد الهش إلى الإيمان المبصر، ودفع الشبهات التي تعصف بالعقيدة، وتحقيق السكينة والطمأنينة، وإقامة التكامل بين العقل والوحي حتى لا يقع الإنسان بين طرفي الإفراط والتفريط. وهذه المحاور هي ما يعالجه هذا المبحث في مطلبين: مسالك البرهان، ثم أثر النظر في دفع الشبهات وتحقيق السكينة[٣٥].

المطلب الأول: مسالك البرهان العقلي المؤدية إلى اليقين بالله تعالى

من أعظم مسالك البرهان التي يقررها القرآن مسلك النظام والإتقان، إذ يوجّه الإنسان إلى فحص الخلق وتكرار النظر حتى يعجز عن العثور على خلل، فينتهي إلى اليقين بإحكام الصنع. قال تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ**﴾[٣٦]، فالآية تُحوّل التجربة المتكررة إلى منهج تحقق، وتقرر أن تكرار الفحص يزيد اليقين رسوخاً، ويشرح الرازي أن معنى فارجع البصر ليس مجرد تكرار النظر الحسي، بل تكرار النظر العقلي الذي يفتش عن التفاوت، وأن انكسار البصر عن العثور على الفطور مع كثرة الفحص يدل على الإتقان والحكمة، وهذا يقرر أن البرهان ليس دائماً انتقالاً من مقدمات

---

(٣١) ينظر: الإرشاد، ١/١٦٠.

(٣٢) ينظر: جامع العلوم والحكم، ١/٦٢.

(٣٣) ينظر: شرح المقاصد، ٢/١٠٢.

(٣٤) ينظر: مدارج السالكين، ١/٨١.

(٣٥) ينظر: الكشف عن مناهج الأدلة، ١/٦٤.

(٣٦) سورة الملك: ٣-٤.

لفظية، بل قد يكون انتقالاً من ملاحظة انتظامٍ كوني إلى إثبات علمٍ وقدرةٍ وحكمة[٣٧].

من مسالك البرهان القرآني أيضاً جمع دلالات الآفاق والأنفس، قال تعالى: ﴿**وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**﴾[٣٨]، فالآية تجعل الأرض ميداناً للبرهان، وتجعل النفس ميداناً آخر، وفي هذا إشارة إلى أن الدلالة تتقوى بتعدد مسالكها، وأن من ضاق عليه أحد الأبواب فتح له الآخر، حتى يثبت اليقين لمن أراد الحق. ويذكر ابن كثير أن آيات الأنفس تشمل الخلقة وما أودع الله فيها من القوى، وأن من تأمل ذلك عرف حكمة الخالق ورحمته، ويؤخذ من هذا أن البرهان ليس أمراً بعيداً عن حياة الإنسان، بل هو حاضرٌ في ذاته: في السمع والبصر والإرادة والتفكير، وأن من قرأ نفسه قراءة اعتبارية انتقل من العادة إلى المعرفة، ومن الغفلة إلى الشكر[٣٩].

ومن مسالك البرهان أيضاً دليل التمانع الذي يقرر وحدة الإله الحق عبر استحالة تعدد المدبرين المستقلين، قال تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾[٤٠]، فالدلالة هنا عقليةٌ صريحة: تعدد الإرادات المستقلة في تدبير الكون يفضي إلى الفساد والاختلاف، وانتظام الكون شاهدٌ على وحدة المدبر، وهذا دليل يقربه القرآن بلا تعقيد اصطلاحي. وقد اعتنى ابن رشد بتفسير هذا المسلك بوصفه برهاناً قريباً من الحس والعقل معاً، لأنه يعتمد على قاعدة انتظام العالم وامتناع اجتماع التدبيرين المتضادين، ويقرر أن هذا البرهان يصلح للتعليم العام وللاستدلال الفلسفي على حد سواء، لأنه يربط النتيجة بمقدمةٍ مشاهدة هي انتفاء الفساد العام ووجود السنن الثابتة[٤١].

من مسالك البرهان كذلك الاستدلال بالبدء على الإعادة، لأن العقل إذا سلّم بإمكان الإنشاء الأول لم يعد يستبعد الإعادة. قال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾[٤٢]، فالآية تربط القدرة بالحكمة، فتنتج يقيناً أخلاقياً بالجزاء، لأن الخلق بحكمة يستلزم نهايةً عادلة لا عبثاً. ويقرر ابن كثير أن الآية تحتج على من أنكر البعث بأن من قدر على الإنشاء أول مرة لا يعجزه الإعادة، وأن وصف الله بالعزة والحكمة دليل على أن الخلق والتدبير ليسا عبثاً. وهذا الربط بين القدرة والحكمة يبين أن أثر البرهان يتجاوز إثبات وجود الخالق إلى إثبات معاني أسمائه وصفاته التي تصلح بها حياة القلب: العزة التي تمنع العجز، والحكمة التي تمنع العبث[٤٣].

ومن مسالك البرهان ما يمكن تسميته بدليل الربوبية المؤدي إلى لوازم الألوهية، إذ يستخرج القرآن الإقرار بالخلق والرزق والتدبير ثم يحوّل ذلك إلى التزامٍ عملي. قال تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ**﴾[٤٤]، فالمسلك هنا ينتقل من إقرارٍ عقلي إلى تقوى عملية. ويشرح ابن القيم أن كثيراً من الناس يسلّمون بالربوبية ثم لا يحققون مقتضاها في العبادة، وأن علاج ذلك هو ربط الإقرار بالعمل كما تفعل الآيات حين تنقل من الدليل إلى التقوى والشكر. فبهذا يتحول البرهان إلى توحيدٍ عملي

---

(٣٧) ينظر: مفاتيح الغيب، ٦٥/٣٠.

(٣٨) ينظر: الذاريات: ٢٠–٢١.

(٣٩) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ٢٤٢/٤.

(٤٠) سورة الأنبياء: ٢٢.

(٤١) ينظر: الكشف عن مناهج الأدلة، ٥٨/١.

(٤٢) سورة الروم: ٢٧.

(٤٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ٣١٥/٦.

(٤٤) سورة يونس: ٣١.

يحرر القلب من التعلق بغير الله، ويجعل المعرفة بالله تعالى معرفةً محركة للسلوك لا ساكنة في الذهن[٤٥].

ومن أهم ما يضمن أن البرهان لا يبقى مجرد تصورٍ نظري أن يتحول العلم إلى عملٍ قلبي، ولذلك جاء الأمر بالعلم في صيغةٍ تقصد ترسيخ التوحيد لا مجرد المعلومة، قال تعالى: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ**﴾[٤٦]، فالعلم هنا مطلوبٌ لكونه بوابة المعرفة بالله تعالى، ومعرفة الله إذا صحت أورثت خشيةً وتواضعاً واستقامة، لا مجرد جدلٍ أو ثقافة عامة. ويكتمل مسلك البرهان حين يقرن الإنسان الدليل بمعنى العبودية: فيرى أن انتظام العالم ليس مجرد نظامٍ طبيعي، بل نظامٌ مسخر، وأن النعم ليست مجرد حظوظ، بل عطايا تستوجب شكراً، وأن الحياة ليست مصادفة، بل تدبير، وبذلك تتشكل معرفة الله تعالى في القلب بوصفها معنى وجودياً يعيد ترتيب حياة الإنسان ويمنحه طمأنينة تتجاوز حدود الاستدلال النظري[٤٧].

يتبين أن مسالك البرهان في الإسلام متعددة ومتكاملة: نظامٌ وإتقان، وآفاقٌ وأنفس، وتمانعٌ يمنع التعدد، وبدءٌ يدل على الإعادة، وربوبيةٌ تثمر تقوى، وعلمٌ يقود إلى توحيد، وكل ذلك يصنع يقيناً بالله تعالى ينعكس على الأخلاق والسلوك.

المطلب الثاني: أثر النظر في دفع الشبهات وتحقيق السكينة والتكامل بين العقل والوحي

يظهر أثر النظر أولاً في قدرته على تفكيك الشبهة وردها إلى أصلها، لأن كثيراً من الشبهات ليست أدلة حقيقية، بل خلطٌ بين ألفاظ مجملة أو لوازم موهومة أو مقدمات غير مسلمة. ومن هنا كان من ضوابط دفع الشبهات ردها إلى المحكمات والكليات، وعدم بناء الاعتقاد على متشابهات أو احتمالات ضعيفة، لأن اليقين لا يُنقض بالشك، وهذا من أصول ترتيب الأدلة عند أهل التحقيق[٤٨].

ومن القواعد القرآنية التي تعالج منشأ كثير من الفتن المعرفية التفريق بين المحكم والمتشابه في قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾[٤٩]، وهي قاعدة تعيد ترتيب العقل عند ورود الملتبس: لا تتبع ما يوقعك في الحيرة طلباً للفتنة، بل ردّ ما تشابه إلى ما أحكم، واجعل الرسوخ العلمي هو الميزان. وهذه القاعدة تمنح الباحث سكينة منهجية: إذ يدرك أن اضطرابه كان من سوء ترتيب الأدلة لا من ضعف الدين، ويُستكمل هذا الأثر حين يميز الباحث بين الشبهة العلمية والوسوسة القهرية، لأن الوسوسة لا دواء لها بكثرة الجواب أحياناً، بل بقطع الاسترسال. وقد قرر النووي أن علاج الوسوسة يكون بالإعراض عنها وعدم الاسترسال معها، وأن الاستعاذة والذكر يقطعان مادتها، وهذا يربي العقل على الانضباط، ويمنع أن يتحول السؤال من طلب علم إلى دورانٍ لا ينتهي[٥٠].

وتؤكد السُنّة هذا الضابط ببيان كيفية التعامل مع أسئلة من خلق كذا حتى من خلق ربك، وأن العلاج هو الاستعاذة والانتهاء، لأن هذا النوع من السؤال لا يقصد تحقيقاً علمياً، بل يفتح باباً للاضطراب. وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: **(يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول من**

---

(٤٥) ينظر: مدارج السالكين، ١/٨١.

(٤٦) سورة محمد: ١٩.

(٤٧) ينظر: إحياء علوم الدين، ٤/٢٤٨.

(٤٨) ينظر: درء تعارض العقل والنقل، ١/١٣٨.

(٤٩) سورة آل عمران: ٧.

(٥٠) الأذكار، ١/٣٣٣.

خلق ربك؟ **فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته**)، فالتوجيه النبوي يحمي العقل من العبث، ويبين أن النظر له حد يقف عنده إذا صار استرسالاً مفسداً[٥١].

ومن آثار النظر الصحيح أيضاً أنه يفضح مغالطات اللوازم، إذ قد تُصاغ الشبهة على هيئة: إذا قلتم كذا لزم كذا، واللازم غير لازم. وقد بسط ابن القيم هذا الباب وذكر أن كثيراً من الباطل يدخل على الناس من جهة اللوازم المتوهمة، وأن التحقيق يقتضي التثبت من حقيقة اللزوم، لأن قبول اللازم بغير تحقق يفضي إلى ترك حق ثابت خوفاً من باطل موهوم[٥٢].

ويعالج القرآن جانباً آخر من الشبهات وهو تضخم السؤال فيما لا ثمرة له إلا الحرج والتشدد، قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾**[٥٣]، فالآية تضع للنظر بوابة مصلحة: اسأل عما ينفع في العلم والعمل، ولا تجعل السؤال باباً للحرج أو التلاعب. ويشرح ابن حجر أن كثرة السؤال قد تكون سبباً للتكليف بما يشق إذا كان السؤال على وجه التعنت، وأن من الحكمة ترك الاسترسال فيما سكت عنه الشرع. وهذا لا يناقض النظر، بل يضع له حدوده: البحث فيما ينفع، وترك ما لا يزيد إلا اضطراباً أو تكلفاً، وبذلك تحفظ السكينة ويستقيم منهج التعلم[٥٤] ومن أعظم آثار النظر الصحيح أنه يبني سكينة القلب عبر ربط العلم بالذكر، لأن الذكر يقوي الإرادة ويمنع الاسترسال، ويجعل نتائج النظر ثابتة لا عابرة. قال تعالى: **﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾**[٥٥]، فالآية تقرر أن الطمأنينة ليست فقط ثمرة برهانٍ عقلي، بل ثمرة تربية قلبية تصحب البرهان وتثبته. ويقرر الغزالي أن دوام الذكر يحفظ ثمرات العلم من الذبول، لأن القلب سريع التقلب، فإذا تكرر غذاؤه ثبت على اليقين، وصار دفع الشبهة أسهل وأسرع. ومن هنا كانت السكينة ثمرة للتكامل: علمٌ صحيح، وقصدٌ صحيح، وذكرٌ يثبت، وعملٌ يصدق[٥٦] ويضيف الشاطبي أن ترشيد الإيمان لا يتم بكثرة الجزئيات وحدها، بل بمراعاة الكليات المقاصدية التي تجمع شتات الأدلة وتمنع الانتقاء، لأن الانتقاء باب واسع لدخول الشبهة: يأخذ الإنسان جزئية ويترك كلياتها فيضطرب، فإذا رد الجزئيات إلى الكليات استقامت المعاني وسكنت النفس، وهذا هو معنى بناء اليقين على منهج لا على انطباع[٥٧].ومن الأمثال القرآنية التي تهدي العقل إلى تمييز الحق من الباطل وتربي النفس على الصبر عند ورود الشبهة قوله تعالى: **﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾**[٥٨]، فالشبهة زبدٌ يعلو ثم يذهب، والحق يمكث وينفع. ومن آثار النظر أيضاً أنه يحقق التكامل بين العقل والوحي في ترتيب مصادر المعرفة: العقل يثبت أصل النبوة وصدق الرسول، والنقل يبين تفاصيل الغيب والشرائع، والعقل يفهم النص ويستخرج دلالته، فلا يُلغى أحدهما ولا يُطلق أحدهما بلا قيد. وهذه البنية المعرفية إذا استقرت أزالت

---

(٥١) ينظر: صحيح مسلم، ١/١١٩.

(٥٢) ينظر: الصواعق المرسلة، ٢/٤١٢.

(٥٣) سورة المائدة: ١٠١.

(٥٤) ينظر: فتح الباري، ١٣/٢٦٥.

(٥٥) سورة الرعد: ٢٨.

(٥٦) ينظر: إحياء علوم الدين، ١/٢٤.

(٥٧) ينظر: المصدر نفسه، ١/٢٥.

(٥٨) ينظر: الرعد: ١٧.

التعارض المتوهم، لأن الإنسان يعرف أين يعمل عقله وأين يقف، وبذلك يطمئن ويستقيم[٥٩] وخلاصة هذا المطلب أن النظر العقلي إذا انضبط بمنهج المحكمات والكليات، وميز بين الشبهة والوسوسة، وضبط السؤال بميزان المصلحة، وربط العلم بالذكر والعمل، أنتج سكينةً وإيماناً راشداً، وحقق التكامل بين العقل والوحي بوصفه الطريق الأقوم لتحقيق معرفة الله تعالى.

الخاتمة

خلص البحث إلى أن النظر العقلي في الإسلام ليس ترفاً ذهنياً ولا جدلاً منفصلاً عن الهداية، بل هو فعلٌ قصدي منضبط يراد به تحصيل العلم بالله تعالى على بصيرة. وقد تبين أن القرآن والسنة يؤسسان مشروعية النظر عبر دعوة الإنسان إلى الاعتبار بآيات الله تعالى في الآفاق والأنفس، وربط النظر بالذكر والعمل والقصد، ومنع اتباع الظن والتخرص، بما يجعل المعرفة بالله تعالى معرفةً مُصلحة لا معرفةً مُفسدة وتوصل البحث إلى أن تقعيد النظر عند المتكلمين والأصوليين يقوم على تحرير المفاهيم، وتمييز مراتب الأدلة، وضبط الدلالات، ورد المتشابه إلى المحكم، وإقامة قاعدة عدم التعارض بين العقل الصريح والنقل الصحيح، مع بناء أخلاقٍ معرفية تمنع فساد القصد وآفات الجدل، وبذلك يتحول النظر إلى منهجٍ علمي أخلاقي يثمر يقيناً لا اضطراباً.وأظهر البحث أن أثر النظر العقلي يتجلى في بناء اليقين بالله تعالى عبر مسالك البرهان المتنوعة التي يقررها الوحي ويشرحها العلماء، وفي دفع الشبهات بتحقيق المناهج وتفكيك المغالطات، وفي تحقيق السكينة بربط المعرفة بالذكر والعمل، وأن التكامل بين العقل والوحي هو الطريق الذي يحفظ الإيمان من طرفي الإفراط والتفريط ويحقق معرفة الله تعالى معرفةً تثمر الخشية والاستقامة.

المصادر والمراجع:

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً:

١. الإحكام في أصول الأحكام. سيف الدين الآمدي؛ تحقيق/تعليق: عبد الرزاق عفيفي؛ المكتب الإسلامي، ١٤٠٢هـ.
٢. إحياء علوم الدين. أبو حامد الغزالي؛ دار المعرفة، بيروت، د.ت.
٣. الأذكار. يحيى بن شرف النووي؛ تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط؛ الطبعة الثالثة، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
٤. الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد. إمام الحرمين الجويني؛ تحقيق: محمد يوسف موسى وعلي عبد المنعم عبد الحميد؛ مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م.
٥. الاقتصاد في الاعتقاد. أبو حامد الغزالي؛ وضع حواشيه: عبد الله محمد الخليلي؛ الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.
٦. البرهان في أصول الفقه. إمام الحرمين الجويني؛ تحقيق: عبد العظيم محمود الديب؛ الطبعة الرابعة، دار الوفاء، المنصورة، ١٤١٨هـ.
٧. تفسير القرآن العظيم. إسماعيل بن عمر ابن كثير؛ تحقيق: سامي بن محمد السلامة؛ الطبعة الثانية، دار طيبة، الرياض، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
٨. تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل. القاضي أبو بكر الباقلاني؛ تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر؛ الطبعة الأولى، مؤسسة الكتب الثقافية، لبنان، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
٩. التوحيد. أبو منصور الماتريدي؛ تحقيق: فتح الله خليف؛ دار الجامعات المصرية، الإسكندرية،

(٥٩) ينظر: مجموع الفتاوى، ١٢/١٣.

١٩٧٠م.
١٠. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. محمد بن جرير الطبري؛ تحقيق: أحمد محمد شاكر؛ الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
١١. جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم. ابن رجب الحنبلي؛ تحقيق: شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس؛ مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
١٢. الجامع لأحكام القرآن. محمد بن أحمد القرطبي؛ تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش؛ الطبعة الثانية، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.
١٣. درء تعارض العقل والنقل. أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية؛ تحقيق: محمد رشاد سالم؛ (طبعة الجامعة)، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
١٤. شرح المقاصد في علم الكلام. سعد الدين التفتازاني؛ تحقيق: عبد الرحمن عميرة؛ الطبعة الثانية، عالم الكتب، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
١٥. صحيح البخاري. محمد بن إسماعيل البخاري؛ صوّرها واعتنى بها: محمد زهير بن ناصر الناصر؛ الطبعة الأولى، دار طوق النجاة، بيروت، ١٤٢٢هـ.
١٦. صحيح مسلم. مسلم بن الحجاج؛ تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي؛ دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.
١٧. الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة. محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية؛ تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله؛ دار العاصمة، الرياض، ١٤١٢هـ.
١٨. فتح الباري شرح صحيح البخاري. ابن حجر العسقلاني؛ (إخراج/تصحيح وإشراف): محب الدين الخطيب؛ (ترقيم الأبواب والأحاديث): محمد فؤاد عبد الباقي؛ (تعليقات): عبد العزيز بن عبد الله بن باز؛ دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.
١٩. القرآن الكريم. مصحف المدينة النبوية (رواية حفص عن عاصم)، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، د.ت.
٢٠. كتاب التعريفات. الشريف الجرجاني؛ ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر؛ الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
٢١. الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة أو نقد علم الكلام. محمد بن أحمد ابن رشد؛ مدخل ومقدمة تحليلية: محمد عابد الجابري؛ مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٨م.
٢٢. مجموع الفتاوى. أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية؛ جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم؛ مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
٢٣. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين. محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية؛ تحقيق: محمد حامد الفقي؛ الطبعة الثانية، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.
٢٤. مفاتيح الغيب (التفسير الكبير). فخر الدين الرازي؛ دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
٢٥. الموافقات في أصول الشريعة. إبراهيم بن موسى الشاطبي؛ تحقيق: عبد الله دراز ومحمد عبد الله دراز؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.